ذو النون المصرى

كتاب ألفه الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق أما ذو النون فهو العالم العابد العارف بالله أبوالفيض ثوبان بن إبراهيم المصرى، إنه علامة على مسار التاريخ المصرى المعرق فى القِدم. كان إماما، وكان علامة، وكان كرامة، وكان موقفا.

والرجل هو الموقف. الموقف عندى هو المقياس. إنه أكبر من دلالة فى ميزان التاريخ. الموقف أعلى من المناصب.. والرتب.. والشهادات نفسها..

ذو النون عالم محدث.. صوفى.. حكيم.

ولكنى أكتب عنه، موقفا، تعز به الأسوة.. وتعلو به القدوة، وتستضئ به أجيال، ويرشد بسيرته، فى الأمر الصعب، الرجال.

وقد تناول الشيخ الجليل حياة ذى النون- محنته- وفاته- فى الكتاب ذو النون المحدث المتبع للسنة- ذو النون العالم- الصوفى- صاحب الكرامات- السائح- المناجى- الواعظ- الحكيم.

اختلف الكاتبون والمؤرخون فى تاريخ مولده ولكنهم متفقون كما يقول الدكتور مصطفى حلمى، على التاريخ الذى كانت فيه وفاته، كلهم مجمع على أن وفاة ذى النون كانت فى ذى القعدة سنة ٢٤٥هـ.. وهو ماقال به أيضا كتاب (طبقات الصوفية) لأبى عبدالرحمن السُّلمى.

أما مسقط رأسه فبعض المؤرخين يقول إنه من أصل نوبى وبعضهم يقول إنه ولد باخميم فى صعيد مصر. إنه على كل حال كما يقول الدكتور مصطفى حلمى، مصرى المولد والنشأة، والعناصر التى تتألف منها حياته، ثقافته وولايته، والأحداث التى وقعت له، والأقوال التى أُثرت عنه.. إنه استمد تلك العناصر من صميم الحياة المصرية.

يروى مؤلف الكتاب الدكتور عبدالحليم محمود أن صاحب الكواكب الدرية كان يقول عن ذى النون:

(العارف الناطق بالحقائق، الفاتق للطرائق، ذو العبارات الوثيقة، والإشارات الدقيقة، والصفات الكاملة، والنفس العالمة العاملة، والهمم الجلية، والطريقة المرضية، والمحاسن الجزيلة

المتبعة، والأفعال والأقوال التى لاتخشى منها تبعة، زهت به مصر وديارها، وأشرق بنوره ليلها ونهارها).

أما تسميته بذى النون فراجعه إلى كراماته التى تروى عنه، وذلك أنه قال إن امرأة جاءته وقالت إن ابنها أخذه التمساح فلما رأى حرقتها على ولدها أتى النيل وقال: اللهم أظهر التمساح، فخرج إليه التمساح، فشق عن جوفه وأخرج إبنها حيا صحيحا. وإذا كان النون هو الحوت العظيم، وكان يونس عليه السلام قد سمى بذى النون لقصته المعروفة مع الحوت، كما يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾.

وكان لثوبان بن إبراهيم الصوفى المصرى قصة مع التمساح كقصة يونس مع الحوت، إذا كان ذلك كذلك كما يقول الدكتور مصطفى حلمى فقد تبين إذن لِمَ سمى الصوفى المصرى بذى النون. ولعل كل ماهناك من فرق بين ثوبان بن إبراهيم المصرى وبين يونس النبى فى هذه التسمية، هو أن يونس النبى قد سمى بذى النون لأن النون الذى هو الحوت كان قد التقمه، على حين أن ثوبان بن إبراهيم المصرى قد سمى بذى النون لأن له كرامة مع التمساح الذى أشرنا إليه فى القصة.

كان ذو النون عالما متبحرا سافر فى المكان وفى كتب العلم ومصادره كان كما يقول الدكتور عبدالحليم محمود يرتاد المجاهيل فى العلوم، كما كان يرتاد المجاهيل من الأقاليم.

يقول عنه ابن القفطى فى كتابه: أخبار العلماء بأخبار الحكماء:

(ذو النون بن إبراهيم الاخميمى المصرى، من طبقة جابر بن حيان فى صناعة الكيمياء، وتقلد علم الباطن، والاشراف على كثير من علوم الفلسفة.. وكان كثير الملازمة لبربا بلدة اخميم، فإنها بيت من بيوت الحكمة القديمة، وفيها التصاوير العجيبة.. ويقال إنه فتح عليه علم مافيها بطريق الولاية، وكانت له كرامات.

ويلتقى معه فى هذا الرأى، المسعودى وكان أول مصدر كتب عنه.

حين كتبت كتابى (شخصية مصر) قلت إن مصر ابتدعت الرهبانية فى المسيحية ووضعت أسس التصوف فى الإسلام، وكنت أعنى بهذا ذا النون الذى تقول المصادر الإسلامية ومن بينها الرسالة للقشيرى، والطبقات للشعرانى، والكواكب الدرية للمناوى، وحلية الأولياء لأبى نعيم الاصبهانى، واللمع للسراج الطوسى، وكشف الحجب للهجويرى، وكذلك الرازى والترميذى... أنه وحيد دهره علما وعبادة وحالا، ومعرفة، وأباد.. وأنه هو رأس هذه الفرقة- الصوفية فالكل قد أخذ عنه، وانتسب إليه، وقد كان المشايخ قبله. ولكنه أول من فسر اشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق.

ويقول الباحثون المحدثون ومن بينهم «ماسينيون» و«بركلمان» عن هذا المصرى هو أحق رجال الصوفية- على الإطلاق- بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف ويعدونه واضع الحجر الاساسى فى صرح التصوف التيوزوفى الإسلامى.

وإذا كان الإنسان يُعرف فى الموقف الصعب فقد عرف ذو النون فى المحنة بما لايدع مجالا للشك فى نفاسة معدنه.. معدن الأحرار من الرجال.

وشوا به إلى الخليفة المتوكل فحمل إليه فى جماعة، مغلولا مقيدا والناس من حوله يبكون وإذا بذى النون يعلن :

(هذا سن مواهب الله ومن عطاياه، وكل فعاله عذب حسن طيب).

روى ابونعيم فى الحلية عن إبراهيم بن يحيى اليزيدى قال : (لما حمل ذو النون إلى جعفر المتوكل أنزله فى بعض الدور وأوصى به زرافة. وقال : إذا أنا رجعت غدا من ركوبى فأخرج إلىّ هذا الرجل.

فلما رجع من الغد قال زرافة لذى النون: انظر بأن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام.

فلما خرج إليه قال له: سلم على أمير المؤمنين

فقال ذو النون: ليس هكذا جاء الخبر، إنما جاء فى الخبر أن الراكب يسلم على الراجل، فتبسم أمير المؤمنين وبدأه بالسلام، فلما نزل قال له:

- أنت زاهد أهل مصر؟

- قال : كذا يقولون.

قصة يقف عندها الإنسان طويلا فى إكبار.

انسان يخايله شبح الموت على يد (مسرور) السياف وتلوح له فرصة للسلام والتنميق فيه... فرصة للترشى والتودد فيسقطها، مرفوع الرأس.

ويبدو أن الخليفة أدرك أنه امام طراز آخر من الرجال الشرفاء . ولم يعرف جلساء الخليفة هذه القصة فحين ضم المجلس ذو النون آخذ ينشد مخاطبا الله سبحانه، بشعره:

لـله مـن قلـبي المكـان المصـــــون كـل هم عـلي فـــــيك يـهـــــون
لله عــزم بـأن أكـــون قـتـــيـــلا فـيك والصـبـــر عنك مـالايكون

فلما سمعه المتوكل، بكى وانتصر من أجله للصوفية على الفقهاء.

وهكذا غدت المحنة، منحة... غدت نعمة من نعم الله وعطاياه كما نفذت إليها بصيرته.

حين سمعه المتوكل قال:

إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم.

***

صفحة من حياة وضاءة يشرف بها تاريخ الإنسان.